أخلاقيات مناهج البحوث الكيفية: تلازم تفاعلي

Ethics of qualitative research methods: An interactive correlation

أ.د. فضيل دليو
أستاذ التعليم العالي والبحث العلمي .
جامعة قسنطينة3
البريد الالكتروني **:**fdeliou@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2019/05/17 تاريخ القبول: 2019/11/19 تاريخ النشر : 2020/01/14

الملخص:

تعتبر أخلاقيات البحث العلمي مهمة جدا، بغض النظر عن طبيعة مناهج البحث المستعملة (الكمية/ الكيفية)، لأنها تفيد في تجنيب المجتمع تلاعب الأفراد والمنظمات الذين قد يُجَيّرون نشاطهم العلمي لمصالحهم الخاصة. وفي عملنا هذا، سنحاول تحديد مفهومي الأخلاقيات ومناهج البحوث الكيفية، ثم إلقاء نظرة عامة على بعض مواثيق أخلاقيات البحث الجامعي وعلى أهم المبادئ والمعايير الأخلاقية المفترض الالتزام بها في عملية البحث عموما، قبل تخصيص الكلام عن هذه المبادئ والمعايير في مناهج البحوث الكيفية، التي تتميز على العموم بتفاعليتها الموضعية مع "المشاركين".

الكلمات المفتاحية: الأخلاقيات، المناهج، البحوث الكيفية، التفاعل.

Abstract:

Ethics in scientific research is very important, whatever the nature of the research methods used (quantitative/ qualitative), because it helps to spare society from being manipulated by individuals and organizations who may use their scientific activity for their own interests. In this paper, we will try to define the concepts of “ethics” and “qualitative research methods”, then give an overview of some codes of ethics of university research and the most important ethical principles and norms assumed in the research process in general, before explaining in more detail these principles and norms in the qualitative research methods, essentially characterized by their situated interactivity with “participants”.

Keywords: Ethics, methods, Qualitative researchs, Interaction.

1 . مقدمة

لقد أثار التطور العلمي منذ القدم مسألة الأخلاق، فهي كما يقال "سيف ذو حدين": انتهازي ومبدئي، أو وَسِيلي وغائي. والبحوث الجامعية لا تخرج عن مثل هذه السياقات الثنائية، التي يغلب عليها أحيانا الحدّ الأول المتميز بعدة تحديات أخلاقية رافقت مهنة البحث العلمي بإغراءاتها المادية والمعنوية.

وبصفة عامة، تعتبر المهن الحرة ذات العلاقات الإنسانية هي التي تهتم أكثر بتقنين قواعد أخلاقياتها المهنية. فعلى سبيل المثال، توجد في الطب والقانون تحديدات للواجبات المهنية أكثر تفصيلا وتدقيقا من غيرهما من المهن والوظائف؛ إلا أن كل المهن تسعى إلى الالتزام عن طريق بعض القواعد الأساسية، بالممارسة السليمة للمهنة المشتركة. وفي غياب النصوص الرسمية المقننة تأخذ هذه القواعد طابع العادات والتقاليد المفترض احترامها من قبل الجميع، لأن ما هو غير أخلاقي ليس بالضرورة غير قانوني.

ولهذا نجد في الواجبات المقننة، لكل المهن، عبارات مثل: "الاستقامة"، "النزاهة"، "الاعتدال"، "الأخوة"، "الشرف"، "الصالح العام"... وتكتفي قواعد أخلاقيات المهنة في الغالب بذكر التزامات عامة، تشير بطريقة مباشرة أو غير مباشرة لمثل هذه المعاني.

وفي المجال الأكاديمي، تجدر الإشارة إلى ضرورة امتثال الباحثين الجامعيين عامة، لمبادئ ومعايير أخلاقيات مهنتهم. فأخلاقيات البحث العلمي مهمة جدا، بغض النظر عن طبيعة مناهج البحث المستعملة (الكمية/ الكيفية)، لأنها تفيد في تجنيب المجتمع تلاعب الأفراد والمنظمات وتَجييرهم نشاطهم العلمي لمصالحهم الخاصة. ولذلك، سنحاول تحديد مفهومي "الأخلاقيات" و"مناهج البحوث الكيفية"، ثم إلقاء نظرة عامة على بعض مواثيق أخلاقيات البحث الجامعي وعلى أهم المبادئ والمعايير الأخلاقية المفترض الالتزام بها في عملية البحث عموما، قبل تخصيص الكلام عن هذه المبادئ والمعايير في مناهج البحوث الكيفية

2- مفاهيم عامة

يعتبر مجال "الأخلاقيات" مهما جدا، بحيث شملته دراسات معظم التخصصات الجامعية، لارتباطه ارتباطًا وثيقًا بأخلاق وقيم وعادات الشعوب وآدابها العامة المحددة لكل ما

هو "خيْري" دينيا وفلسفيا ونظريا واجتماعيا، والذي عبّرت عنه في ثقافاتها بكلمات متعددة لكنها متداخلة المعاني (Ethics, Deontology،...Moral). وفي اللغة العربية عادة ما يعبر عن ذلك بالجمع بين كلمتي "الآداب والأخلاقيات" في المجال المهني، وكان بالإمكان الاقتصار على إحداهما في هذا المجال (وقد تم هنا استعمال كلمة الأخلاقيات)، لأن هذا التنوع ناتج عن الانتقال من لغة إلى أخرى: فكلمة (Ethics) الإغريقية الأصل ترجمت إلى كلمة (Moral) في اليونانية و"الأخلاق" في العربية. أما كلمة (Deontology) فيشير أصلها اليوناني إلى الواجب (Duty) وتُرجمت إلى كلمتي "آداب أو أخلاقيات" في العربية (في المجال المهني) (دليو، 2019، 8).

ومن جهته، يعرف قاموس "مريم-ويبستر" (Merriam-Webster) الأخلاقيات (Ethics) بمجموعة من المبادئ أو القيم الأخلاقية التي تحكم سلوك الأفراد والجماعات لمساعدتهم على التفرقة بين الصواب والخطأ. **وتعني الأخلاقيات في عملنا هذا** مجموعة من الالتزامات الأدبية (المبادئ والمعايير) للباحث الكيفي تجاه مبحوثيه خاصة ومجتمعه عامة، وسنرى ولو بصفة إجمالية أن المشاكل الأخلاقية حاضرة في كل مراحل صيرورة البحث الكيفي.

أما بالنسبة لمفهوم "البحوث الكيفية"، فإذا رجعنا إلى اشتقاق "الأصل الإيتيمولوجي" لكلمة "الكيفي" (بترجمتها الإنجليزية: Qualitative) فسنجده في كلمة "qualitas"، والتي تعني "النوعية" والجودة وتشير إلى المعرفة التي تتساءل عن جوهر، نوعية وخصائص الظواهر القائمة على التصور الإنساني، بدلا من التكميم أو القياس (Eiroa & Barranquero, 2017, 62)[1].

وأما في تراثنا الإسلامي فنجد أثرا كبيرا للمنهج الاستقرائي (الكيفي) في دراسات علوم الحديث وفي أعمال "الرازي" و"جابر بن حيان" في الطب والعلوم و"الشاطبي" في مقاصد الشريعة... وذلك، مقابل المنهج الاستنباطي الذي عرِفه المسلمون باسم المنهج القياسي واستعملوه خاصة في الفقه. ولاحقا استقى ابن خلدون منهجيته الجديدة –آنذاك من العلوم الاستقرائية "الكيفية" مثل علوم الحديث، ومن العلوم الاستنباطية القياسية مثل أصول الفقه. وقد طبق هذه المنهجية التكاملية في ميدان التاريخ (منى أبو الفضل، 1996، 106).

وعلى العموم، **يمكن تعريف المناهج الكيفية** في عملنا هذا كمجموعة من الممارسات المنهجية المفتوحة تدريجيا (من دون قوالب جاهزة) على الفهم والتأويل، وتعمل على جعل الظواهر تبدو في صورتها الطبيعة وغير معزولة عن تمثلات الفاعلين الاجتماعيين وعن باقي السياقات المجتمعية (الظروف الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية... المحيطة).

3- مدونات ومواثيق أخلاقيات البحث العلمي

بداية، يمكن التأكيد على أن تأثير الاعتبارات الأخلاقية ازداد حدة منذ ظهور حركات حقوق الإنسان وتزايد النشاط الحكومي في مجال البحث بعد الحرب العالمية الثانية، وخاصة بعد الحوادث الأليمة الناتجة عن التجارب النووية والطبية. ولقد أعطت مثل هذه الحوادث قوة للحركات النشطة في مجال حماية الأشخاص الذين تجرى عليهم الأبحاث، فكثفوا من دعواتهم إلى ضرورة الجمع بين العلم والأخلاق. وشمل ذلك بالطبع معظم التخصصات العلمية بما فيها الإعلام الآلي والعلوم الاجتماعية والإنسانية، التي التحقت بالركب منذ أواخر السبعينيات من القرن الماضي (ABAD, 2016, 103).

وفي الثمانينات، اعتمدت معظم الجمعيات العلمية والأكاديمية الرئيسة في الغرب مدونات أخلاقية خاصة بكل منها، يرى "كريستيانس" (Christians C.G.) (Denzin & Lincoln, 144-145) أنها ركزت إجمالا على أربعة مبادئ توجيهية للبحوث الاستقرائية تُغلّب فيها الغايات على الوسائل:

1-موافقة المبحوث الطوعية بعد تلقيه معلومات كاملة ومفتوحة.

2-عدم تضليل (Deception) المبحوثين إلا في حالات الضرورة العلمية والمفيدة مجتمعيا.

3-احترام خصوصية وسرية هوية الأشخاص وأماكن إجراء الدراسة.

4-الدقة، لأن الافتراءات، المواد الاحتيالية، السهو والخديعة غير علمية وغير أخلاقية.

أما "بتشرجي" (Bhattacherjee , 2012, 137-140) فقد عرض بعض مبادئ السلوك الأخلاقي المتوقعة والمقبولة على نطاق واسع داخل المجتمع العلمي في البلدان الغربية، بعبارات أخرى مع تكراره جزئيا المبدأين الأول والثالث (مما قد يجعل مجموعها أكثر من ستة مبادئ):

1-المشاركة الطوعية للمبحوثين وعدم إيذائهم.

2-عدم كشف هوية المبحوثين والسرية.

3-تلخيص أهداف البحث للمبحوثين بعد الانتهاء مباشرة من عملية جمع البيانات، في حالة دعت الضرورة البحثية (انحياز إجاباتهم) إلى عدم كشفها قبلها.

4-كشف كيفية جمع وتحليل البيانات وتحرير نتائج البحث ومشكلاته للمجتمع العلمي.

مع العلم أن معظم الجمعيات المهنية للباحثين اعتمدت ونشرت قواعد سلوك مهنية واجبة الامتثال من طرف أعضائها، ومن أهمها مدونة قواعد السلوك لجمعية نظم المعلومات (AIS) التي سنعرض ملخصا لها فيما يلي:

تصنف مدونة قواعد السلوك التابعة لهذه الجمعية الانتهاكات الأخلاقية إلى فئتين. تشتمل الفئة الأولى على تجاوزات خطيرة مثل الانتحال أو السرقة العلمية (Plagiat /Plagiarism) وتزوير البيانات أو إجراءات البحث أو تحليل البيانات، مما قد يؤدي إلى الطرد من الجمعية أو الفصل من العمل أو اتخاذ إجراءات قانونية أو إلحاق أضرار جسيمة بالسمعة المهنية. وتشمل الفئة الثانية تجاوزات أقل خطورة مثل عدم احترام حقوق الموضوعات البحثية، وتشويه أصالة المشاريع البحثية، واستخدام البيانات المنشورة من قبل الآخرين دون الاعتراف بذلك... (Bhattacherjee , 2012, 140).

أما في الجزائر، وفي غياب جمعيات علمية أكاديمية معتبرة وفعالة، فقد تمت مقاربة هذا الموضوع من قبل وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، حيث تم إنشاء مجلس آداب وأخلاقيات المهنة الجامعية بموجب مرسوم 2004 الذي حدد تشكيلته وصلاحياته، ثم "ميثاق الأخلاق والآداب الجامعية" (مايو 2010) (https://www.mesrs.dz/ar/conseil-d-ethique1)، الذي تضمن محورين لم يكادا يلامسان مسألة أخلاقيات البحوث الأمبريقية، مقابل تركيزهما على المعايير البيداغوجية والوظيفية:

1-المبادئ الأساسية لميثاق الأخلاقيات والآداب الجامعية، وهي سبعة: ثلاثة منها فقط تلامس بعض عموميات النشاط الأكاديمي للأستاذ الجامعي (النزاهة والإخلاص، والحرية الأكاديمية، التقيد بالحقيقة العلمية والموضوعية والفكر النقدي).

2-الحقوق والالتزامات (الوظيفية) الخاصة بالأستاذ الباحث، الطالب والموظفين.

كما أصدرت الوزارة الوصية سنة 2008 القانون الأساسي الخاص بالأستاذ الباحث الاستشفائي الجامعي والقانون الأساسي الخاص بالأستاذ (المرسوم التنفيذي 2008/05/03) ولم يتكلما أيضا عن مسألة البحوث الأمبريقية.

وأخيرا، ولتدارك بعض هذا النقص، أصدرت الوزارة الوصية قرار 2016/07/28 حددت من خلاله القواعد المتعلقة بالوقاية من السرقة العلمية (Plagiarism) ومكافحتها. ولقد عرفت مادته الثالثة السرقة العلمية بكل عمل يقوم به الطالب أو الأستاذ الباحث للانتحال وتزوير

النتائج أو الغش في الأعمال العلمية والبيداغوجية، مثل عدم ذكر المصادر والمترجمين وتبني أعمال الآخرين. أما تدابير الوقاية من السرقة العلمية (الفصل الثالث) فقد شملت تدابير التحسيس والتوعية والتأطير والرقابة والمعاقبة، مع إنشاء مجلس آداب وأخلاقيات المهنة الجامعية لدى كل مؤسسات التعليم العالي ومؤسسات البحث (الفصل الرابع).

هذه إذن نظرة إجمالية على القوانين الخاصة بأخلاقيات المهنة الجامعية في الجزائر، والتي تفتقد –كما سبق ذكره-إلى معالجة شاملة ومفصلة لمسألة أخلاقيات البحوث التطبيقية عموما والاستقرائية خصوصا. مع العلم أن التقاليد الجامعية عندنا تفرض على الباحث الميداني أن يتقيد في واجهة استمارة بحثه بتوضيح التزامه بسرية البيانات وعدم استعمالها إلا لأغراض علمية.

4-المبادئ الأخلاقية وعملية البحث عموما

عندما يباشر الباحث عملية البحث يجب عليه أن يحترم المبادئ الأخلاقية. بداية، عليه أن لا يدرس إلا الظواهر المهمة مع توخي خدمة الصالح العام واحترام حقوق الشخص الذي يشارك في البحث وحقوق زملائه الباحثين بإعلامهم بالإجراءات التي اتبعها للوصول إلى نتائج بحثه.

وفي هذا السياق، يرى "سلتيز وآخرون" (Selltiz et al., 1977) أن أول واجب يلتزم به الباحث هو أن يوازن بدقة بين المنافع النظرية والعلمية والتكلفة البشرية والمادية، ولا ينبغي له القيام بالبحث إلا إذا غلبت كفة المنافع. وبالطبع، فإن الترجيح بين المنافع المحتملة والتكلفة المتوقعة هو بالضرورة ذاتي. فهذه العملية التحليلية تظل في نهاية المطاف تحت مسؤولية الباحث واللجان المختصة، إن وجدت.

ومن بين التكاليف المحتملة بالنسبة للمبحوث الذي يخضع للممارسات البحثية المشبوهة، نجد على سبيل المثال: مسّ الكرامة، القلق، الفضيحة، الإحراج، فقدان الاستقلالية، وحتى نقص احترام الذات. أما المنافع المحتملة من بحث ما، فمن بين ما تشمله: التقدم النظري، فهم أفضل للسلوك الإنساني، تطوير المعارف العملية للمجتمع، وكذا المنافع التي يمكن أن تعود على المبحوثين، مثل فهم أفضل للذات وللظاهرة محل البحث والرضا بسبب المساهمة في خدمة العلم.

وعندما تكون الموازنة بين الأمرين غير واضحة، يجب دائما إعطاء الأولوية لكرامة المبحوثين وسلامتهم. فالظروف التي تجري فيها عمليات البحث ينبغي أن تكون هي تلك التي يرضاها الباحث لأحد أعضاء أسرته هوَ (لارامي وفالي، 2009، 297).

مع الإشارة إلى أن تقييم المخاطر والتكاليف المحتملة مقابل المنافع المحتملة للأفراد والمجتمع، غالبا ما يكون تحديدها وتوقعها أسهل في الأبحاث الطبية (السبّاقة في مجال الأخلاقيات)، لكن هذا الأمر، لن يكون كذلك بالنسبة للبحوث الاجتماعية التي يكون فيها تأثير تدخل الباحث، بحكم طبيعة عمله، أقل وضوحًا، بحيث يكون توقع المخاطر المحتملة صعبا. من هنا، يقترح البعض (ABAD, 2016, 103) الاستعاضة عن "تقييم المخاطر والمنافع" بـ"حماية الحقوق"، والتي تستهدفها في نهاية المطاف أهم المبادئ الأخلاقية سابقة الذكر: المشاركة الطوعية، الخصوصية والسرية.

وبالطبع، تتخلل مسألة المساءلة الأخلاقية الذاتية كل مراحل البحث: اختيار موضوع البحث (مهم، مفيد، عنصري، مثير للفتنة...)، الإجراءات المنهجية (كمية، كيفية)، تحليل وتفسير/ تأويل النتائج وكتابة التقرير النهائي، وآثار كل ذلك على المبحوث وأماكن إجراء الدراسة، مما سنعرضه لاحقا.

مع العلم أن المسؤولية الأخلاقية للباحث لا تنتهي بانتهاء البحث بل تتجاوزها إلى مرحلة النشر، التي قد تفضي مستلزماتها الإغرائية (مكافآت مختلفة: توظيف، ترقية، جوائز، شهرة...) إلى محاولة بعض الباحثين الغش أو إدخال بعض الانحرافات أو حتى مخادعات منتظمة في منشوراتهم: الاكتفاء بذكر آراء الباحث دون غيره من الباحثين، الاكتفاء بذكر تلك التي توافق آراءه، بل حتى نشر نتائج بحث لم يحدث أن قام به أو أنجزه فعليا. بالإضافة إلى أمور أخف وزن أخلاقيا، مثل عرض مخطوط البحث (مقال) لعدة مجلات في الوقت نفسه للرفع من حظوظ القبول لدى واحدة منها. وهذه مشكلة أخلاقية لأن تكرار نشر المقال في مجلات مختلفة قد يحرم أبحاثا أخرى من الفرصة نفسها (لارامي وفالي، 2009، 303-304).

5-المبادئ الأخلاقية في البحوث الكيفي

بداية، بمكن القول أن المبادئ الأخلاقية العامة، سابقة الذكر، تشمل –على العموم- كل أنواع البحوث الكمية والكيفية، ومع ذلك، يرى البعض (Lincoln , 2005, 166)، أن مدونات السلوك الأخلاقي السائدة في مجال العلوم الاجتماعية تميل إلى التلاقي مع طبيعة

المنظور الوضعي الكمي، بحيث أن وجهة النظر التقليدية التي تفضل المبادئ المجردة والإجراءات المنمطة لسلوك المبحوثين رغم اختلاف السياقات الظرفية، تمت مأسستها رسميا، مع تهميش المطالب المعرفية والمنهجية للمنظور الكيفي التأويلي، أو تخصيصه بمساحة صغيرة للمناورة (Abad , 2016, 111).

وعليه، وجب على الأقل استكمال الإطار الأخلاقي الحالي، القائم على أخلاقيات الطب والبيولوجيا وعلى أساس مبادئ عامة، بإطار تأويلي مرن وعملياتي. وهو ما عبّر عنه البعض، بالمرور، في حالة مناهج البحوث الكيفية، مما يسميه "كوريغان" (Corrigan , 2003) "الأخلاقيات الفارغة" إلى ما يسميه البعض "الأخلاقيات الصغيرة/ الجزئية (Micro)" أو "الأخلاقيات الموضعية" (Simons & Usher, 2000)؛ وبتعبير آخر، الاستعاضة عن "التعاقد الأخلاقي" المسبق (مع المبحوثين) السائد في مناهج البحوث الكمية بـ"التعاون-التفاعلي الأخلاقي" الآني (بين المشاركين في البحث) المناسب لمنهجية البحوث الكيفية. أو ما يسميه "بولوك" (Pollock, 2012, 3) بثنائية "الأخلاقيات الإجرائية" مقابل "الأخلاقيات العملية" (Procedure versus Process) (Abad , 2016, 112).

ولذلك، لا يزال الموقف الأخلاقي للباحث الكيفي محل جدل، وهو يعتبر واحدا من أكثر المواقف صعوبة في المجال العلمي، حيث يجب على الباحث، من حيث كونه باحثا علميا، تلبية متطلبات الصرامة المنهجية والتحليل الميداني المجرد، أي الميل إلى "تشيئة" الأفراد المبحوثين. ومن ناحية أخرى، فإن خصائص المنهجية الكيفية، وخاصة الاتصال المباشر بالمبحوثين، الذين يعتبرون مشاركين في البحث وجزءً أساسيا فيه (وليس موضوعات دراسية) تصعّب من التزامه الأخلاقي. فالأيديولوجيات والهويات والعناصر الثقافية تعمّ جميع مراحل البحث الكيفي، مما يزيد من التوتر بين الواجبات الأخلاقية (نحو المشاركين) والمادية (التزامات أكاديمية أو زبونية) للكيفيين، بين أساليبهم ومعرفتهم والاعتبارات الأخلاقية، ويمنعهم من التموقع الوسطي بسهولة بين المسؤولية الأخلاقية والكفاءة التقنية. كل هذا يؤدي إلى مفارقات الحل الصعب، والموقف الأخلاقي والمعرفي غير المريح، والذي يجب أن يدفع ممارسي المناهج الكيفية إلى ممارسة دائمة (ولكن صحية) للمراجعة الذاتية (Cerrillo, 2009, 1,13) وجعلها علنية.

وبما أن البحوث الكيفية تتضمن التفاعل والحوار مع المشاركين، فإن القضايا الأخلاقية التي تنشأ في هذه العمليات هي أكثر وضوحا وأكثر دقة من تلك الموجودة في البحوث

الأخرى[2]. فمن الواضح أن المقاربة الكيفية تجلب معها سياقًا معقدًا من العلاقات والحلول الوسط والصراعات والتعاون الذي يتسبب بالضرورة في اجتهاد الباحث للحفاظ على الشروط الأخلاقية لدراسته التي تنعكس في نوايا وأهداف دراسته، وفي نتائج الدراسة المقصودة أو غير المقصودة، وفي الطريقة التي تنعكس بها قيم ومشاعر وتصورات المشاركين (Noreña , 2012, 269).

6-المعايير الأخلاقية الرئيسية المتعلقة بالبحث الكيفي

رغم تميز الموقف الأخلاقي للباحث الكيفي بكونه موضعي، عملياتي وبراغماتي –كما مر معنا-، يجب أن يضع في الاعتبار بعض المعايير الأخلاقية عند تصميم الدراسة وعند جمع البيانات البحثية الكيفية، وله أن يستكملها أو يكيّفها مع طبيعة موضوعاته البحثية. وتتعلق هذه المتطلبات حسب معظم الباحثين (Álvarez-Gayou, 2003, Lipson, 2003, Denzin & Lincoln, 2005, Bhattacherjee , 2012, Abad, 2016…) بالمبادئ الأخلاقية الثلاثة الكبرى: المشاركة الطوعية، الخصوصية والسرية. وفيما يلي تفصيل الكلام عنها، مع إثرائها ببعض الخصوصيات الكيفية (Noreña, 2012, 270-272):

- تطبيق **الموافقة المستنيرة والطوعية للمشاركين** (Informant Consent) بعد تعريفهم بحقوقهم وواجباتهم في عملية البحث (Christians, 2000, 144). إن أحد الجوانب التي يجب مراعاتها هنا هو مقدار المعلومات التي يجب تقديمها للمشاركين وكيفية تقديمها لهم، حيث يوجد احتمال أن يتم ذلك بطريقة إيجابية أو سلبية بالنسبة لتحقيق أهداف البحث. وستكون المسؤولية الأخلاقية للباحث هي التي تحدد طبيعة الآثار المنهجية لذلك في هذه المرحلة. فمن المهم معرفة أن المعلومات المقدمة تصبح عنصرا يؤثر على صحة الدراسة لأنه عندما يكون لدى المشارك معرفة بالهدف من جمع البيانات منه، فإنه يمكن أن يقدم إجابات مقبولة اجتماعيا. لأن الغرض من هذه الموافقة هو قبول الأفراد المشاركة في البحث عندما يتوافق مع قيمهم ومبادئهم ومع إدراكهم لأهمية المساهمة بتجربتهم في فهم الظاهرة المدروسة، دون أن تلحق هذه المشاركة أي ضرر معنوي بهم.

- **اعتماد السرية** (Confidentiality): تؤكد قواعد الأخلاقيات على أمن وحماية هوية الأشخاص الذين يشاركون في البحث. وتشير السرية إلى عدم الكشف عن هوية الأشخاص

المشاركين في البحث، وكذا إلى خصوصية المعلومات التي يدلون بها. وبالتالي، للحفاظ عليها، يتم إعطاء رقم أو اسم مستعار للمشاركين في المقابلة. ويفضل -حسب "تود" (Tod, A., 2008)- أن يكون اختيار الاسم المستعار من قبل المشارك، مما سيتيح له الشعور بالثقة في العملية وبالمصداقية في سرية نتائج البحث (Noreña , 2012, 270). بالإضافة إلى ذلك، من المهم أن يطرح الباحثون السؤال الأخلاقي حول ما إذا كان المشاركون يرغبون في التعرف عليهم وتحديد هويتهم، والأمر نفسه بالنسبة للمراكز التي ستجرى فيها الدراسة، ومتى يمكن كشف بعض هذه المعلومات ولمن. مع إشارة خاصة إلى التسجيلات أو المقابلات أو قاعدة البيانات التي تم إنشاؤها في العمل الميداني والتي يجب أن تحفظ في أرشيف أو ملفات سرية يقتصر الوصول إليها على الباحثين فقط. وبعد فترة زمنية معقولة، يقدر الباحثون أنها مناسبة أو يعتبرون أنهم لا يحتاجون إلى استخدام هذه المعلومات، يجب إتلاف ملفاتها (Noreña, 2012, 272).

وفي هذا السياق، يمكن أن نتوقع أن يحتل البعد الأخلاقي لأرشفة مثل هذه البيانات الكيفية مكانة مركزية في النقاش الأكاديمي المستقبلي، إذا أخذنا بعين الاعتبار تطور السياسة العلمية في الغرب نحو نموذج العلم المفتوح (على أساس الوصول المجاني إلى البيانات الأولية والمعلومات اللازمة لإعادة تنفيذ عملية البحث بأكملها) والعلوم الإلكترونية (على أساس التعاون المتعدد التخصصات والعالمي). مع العلم أن الاتحاد الأوروبي تبنى تنفيذ المستودع التجريبي (OpenAire) (https://www.openaire.eu/) تعبيرا عن التزامه الواضح في سياسته العلمية "لآفاق 2020" بهذا النموذج، حيث يشير المؤلفان (Álvarez, G. y Sintas, L., 2012, 500, 504) إلى أنه سيُطلب من جميع المشروعات الممولة أوروبيا وضع بياناتها في مستودع للاتحاد الأوروبي من أجل الحفاظ عليها والسماح لباحثين آخرين بالوصول إليها لتقييم النتائج ومقارنتها بغية إعادة استخدامها مجانًا في مشاريع بحثية أخرى، أو في التكوين التحليلي لباحثين كيفيين جدد.

وعلى العموم، تفترض ممارسة البحث الكيفي في حد ذاتها بعدًا أخلاقيًا وأدبيا واسعًا يتجاوز في بعض الأحيان المتطلبات التقنية لجمع المعلومات، بغية تفضيل رفاهية الأشخاص على الأغراض الأكاديمية والعلمية.

- **إدارة المخاطر** (Risk management) المحتملة التي يواجهها المشاركون في الدراسة: يجب النظر في جانبين لتقليل المخاطر التي يتعرض لها المشاركون في البحث. يتعلق الأول بضرورة

امتثال الباحث لكل المسؤوليات والالتزامات مع المشاركين؛ والثاني يتعلق بالمعالجة اللاحقة للبيانات المقدمة.

إن البحوث الكيفية لها ما يبررها عندما تعمل على تقليل المخاطر المحتملة للأفراد المشاركين في البحث؛ وتعظيم الفوائد المحتملة لهم وللمجتمع؛ فالفوائد المحتملة تكون متناسبة مع المخاطر أو تتجاوزها. كما يجب أن يشرح الباحث للمشاركين أن نتائج الدراسة لن تؤدي إلى أي ضرر أو أذى مؤسستي أو مهني أو شخصي بسبب المعلومات التي تم جمعها؛ بهذا المعنى، يجب أن يكون واضحا للباحث أن نتائج الدراسة لا ينبغي أن تستخدم لأغراض أخرى غير تلك المعلن عنها في البداية.

كل هذه الأمور يجب معالجتها في التساؤل الرئيس والأهداف والمرجعيات النظرية واستراتيجيات جمع البيانات ونشر النتائج. بالإضافة إلى ذلك، عند النزول إلى الميدان، يحتاج الباحث إلى معرفة كيفية القيام، من منظور أخلاقي، بملاحظة المشاركين وإجراء المقابلات معهم واستخدام التسجيلات الصوتية أو المرئية (Noreña , 2012, 270).

مع العلم أن المسؤولية الأخلاقية للباحث لا تنتهي بانتهاء البحث بل تتجاوزها إلى مرحلة النشر، التي تفضي مستلزماتها الإغرائية (المذكورة أعلاه) إلى محاولة بعض الباحثين الغش أو التزوير. إلا أن حالات الغش هذه نادرة جدا، خاصة إذا كان البحث ينجز جماعيا أو في إطار بحوث تجريبية. فنشر مقالة عن تجربة من هذا النوع يتضمن في الغالب الأعم عرض كل إجراءات التجريب، ووصفا للأشخاص الذين شاركوا في التجربة، والنتائج، والتحليل، والتفسير، ومناقشة النتائج. ولا يتم عرض كل هذه العناصر من أجل بيان الإجراءات المؤكدة للتجربة فقط، ولكن لتمكين باحثين آخرين من إمكانية الوصول، باستعمال التقنيات نفسها إلى النتائج نفسها أيضا. ومن ثم فإن الغش في هذه الظروف سيتم اكتشافه بسرعة من طرف الباحثين الآخرين.

ولكن الأمر مختلف بالنسبة للأبحاث الأمبريقية وخاصة الكيفية منها لأن الملاحظات تتم في العالم الحقيقي، وسيكون من الصعب مثلا تكرار نتائج ملاحظة تمت في واقع ما وفي وقت وزمان محددين.

وأخيرا، زيادة على قضية الملكية الفكرية لتقرير البحث، هناك مشاكل أخلاقية أخرى متعلقة بنشره، سبق ذكرها عند الحديث عن المعايير الأخلاقية العامة.

7-خاتمة

يجدر التذكير بأن معضلة الباحث على الصعيد الأخلاقي تكمن في كيفية تحقيق التوازن بين واجبه في تطوير المعرفة وواجبه في حماية المشاركين في كل مراحل البحث. فمما لا شك فيه أن كفاءة الباحث ونزاهته وإخلاصه هي الصفات الأساسية التي تضمن مصداقية أعماله واحترام زملائه. ولقد تم الكلام هنا عن "الحماية العملية للمشاركين" طيلة مسار البحث بدلا من المبادئ العامة: "الموافقة الطوعية والخصوصية والسرية"، لأن البحوث الكيفية، بحكم طبيعتها المرنة والمرتبطة بسياقات اجتماعية خاصة لا يمكنها الاكتفاء في حل معضلاتها الكيفية بتوقعات تقنية للمخاطر والمنافع ولا بمبادئ عامة، بل عليها تدعيم ذلك بالالتزام بأخلاقيات موضعية تجعل الباحث يفكر باستمرار في المسؤولية الأخلاقية لأعماله، وفي اتخاذ القرارات المناسبة لكل حالة بحثية محددة. وهو ما عبر عنه البعض (Abad , 2016, 115) بالأخلاقيات البراغماتية. أي أن أخلاقيات البحوث الكيفية تهتم بسياقات الفعل الأخلاقي ومن منظور علائقي. مما يتطلب موقفا نقديا وإبداعيا لحل المعضلات الأخلاقية وقت ظهورها في عملية البحث.

8-المراجع

- دليو فضيل (2019/1440): دراسات في الإعلام والاتصال، ج.2، *أخلاقيات الإعلام والاتصال*، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث والترجمة، جامعة قسنطينة 3.
- لارامي وفالي (1429هـ-2009): البحث في الاتصال، عناصر منهجية، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث والترجمة. ترجمة دليو وآخرون لكتاب: Laramée, A. et Vallée, B.: La Recherche en communication. Éléments de méthodologie. Presses de l'université du Québec. 2001
- منى أبو الفضل (1996): "النظرية الاجتماعية المعاصرة: نحو طرح توحيدي في أصول التنظير ودواعي البديل"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 6، واشنطن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- ABAD, B. (2016) : Investigación social cualitativa y dilemas éticos. EMPIRIA. Revista de Metodología de Ciencias Sociales. N.º 34, mayo-agosto, 2016, pp. 101-120.
- ÁLVAREZ, GARCÍA E. y SINTAS, LÓPEZ J. (2012): "Ciencia abierta, e-ciencia y nuevas tecnologías: Desafíos y antiguos problemas en la investigación cualitativa en las ciencias sociales", Intangible Capital, 8 (3),

pp.497-519,disponible en: http://www.intangiblecapital.org/index.php/ic/article/view/384 [consulta: 03-5-2019]
- BHATTACHERJEE, Anol (2012): Social Science Research: Principles, Methods, and Practices. Textbooks Collection. 3. http://scholarcommons.usf.edu/oa_textbooks/3
- CERRILLO Vidal, Jose Antonio (2009): El Intermediario imposible. Algunas reflexiones en torno a epistemología y ética en la investigación cualitativa. Nómadas. Revista Crítica de Ciencias Sociales y Jurídicas 2009; 24(2):187-201. Disponible en: http://www.redalyc.org/articulo.oa?id=18112178013
- CHRISTIANS, C.G. Ethics and politics in qualitative research. In : Denzin N, Lincoln Y. Handbook of qualitative research. Londres : Sage ; 2000. pp. 133-155.
- CORRIGAN, O. (2003): "Empty ethics: the problem with informed consent", Sociology of Health and Illness, 25 (3), pp. 768-792.
- DENZIN, N. K., & LINCOLN, Y. S. (1994, 2005). Handbook of qualitative research. Thousand Oaks, CA : SAGE.
- EIROA, Matilde & BARRANQUERO, Alejandro (2017): Métodos de investigación en la comunicación y sus medios. Madrid. Ed. Sintesis.
- LINCOLN, Y. S. (2005): "Institutional review boards and methodological conservatism: the challenge to and from phenomenological paradigms", en The Sage Handbook of Qualitative Research, Sage, Thousand Oaks, CA, pp. 165-181.
- NOREÑA, A. L. et al. (2012): Aplicabilidad de los criterios de rigor y éticos en la investigación cualitativa. Rev. Aquichan. Año 12- Vol.12. Nº 3 - CHÍA, Colombia – Dic. 2012. 263-274.
- POLLOCK, K. (2012): "Procedure versus process: ethical paradigms and the conduct of qualitative research", BMC Medical Ethics, 13 (25), pp. 1-12.
- SELLTIZ, C. et al. (1977), Les méthodes de recherches en sciences sociales. Traduit par D. Bélanger, les éditions HRW, Montréal.
- SIMONS, H. & USHER, R. (2000): Situated ethics in educational research, London, Routledge.
- SPROULE, J. M. (1980) : Argument. Language and its Influence, NewYork, McGraw-Hill.
- TOD, A. Entrevista. En: Gerrish K, Lacey A. Investigación en enfermería. España: McGraw Hill-Interamericana; 2008. pp. 337-352.

مواقع عامة من دون مؤلفين

- https://www.etymonline.com/word/method. 19/4/2019.

- https://www.merriam-webster.com/dictionary/ethic. 19/4/2019.
- https://www.openaire.eu/...19/4/2019.
- https://www.mesrs.dz/ar/conseil-d-ethique1... 15/4/2019.

الهوامش

[1] أما "المناهج" (Methods) الاجتماعية فمفهومها الشائع يشير إلى مجموعة أدوات أو تقنيات جمع بيانات كمية و/أو كيفية بهدف تحصيل معارف اجتماعية، أي أنه عملية تنجز بها مهمة علمية اجتماعية. وتبعا لذلك، تكون هذه المناهج كمية أو كيفية. أما أصلها الإيتيمولوجي فمن اللاتينية (Methodus) والإغريقية (Methodos)، وهو بذلك يشير إلى الطريقة أو الأسلوب أو النهج... وهي كلمة مركبة من مقطعين: "Meta" بمعنى متابعة أو بحث، و"Hodos" بمعنى منهج، نظام، طريقة عمل... (https://www.etymonline.com/ 19/4/2019).

[2] وهو ما يؤكد فرضية "ملازمة الأخلاق للاتصال"، لأن البعد الأخلاقي جزء أصيل من الفعل الاتصالي، لأن الاتصال أخلاقيٌّ بطبعه (Sproule: 1980). مع العلم أن القيد الأخلاقي الملازم للاتصال، يأخذ شكل مطلبين مختلفين يمكن وصفهما بالإيثار و"الكينونة/ الوجودية". فالمسؤولية "الإيثارية" مستمدة من مشكلة الثقة التي يطرحها الاتصال، فالمتحدث قد يقول الحقيقة كما قد يتواصل بطريقة مضللة. أما المسؤولية الوجودية فلا تتعلق بالمتواصلين بل بالواقع: بحيث تكمن وظيفة لغة التواصل في تصور الواقع وإعادة تشكيله بل "اختلاقه". إن هذه الإمكانية تستلزم عدم تشويه الواقع وعدم اقتراح تمثلات غير صحيحة أو مجتزأة (دليو: 2019، 17-19).